

الألفاظ الهندية المعربة

من مظانهر الوحيدة:

الدكتور محمد يوسف
أستاذ اللغة العربية - جامعة كراتشي (باكستان)

أوربا إلى الشرق الأدنى « (الحضارة الإسلامية ، 1950 ، ص 4) . كذلك يعتبر اهتداء واسكودي كاما (Vasco da Gama) إلى طريق الهند نقطة التحول في العلاقات بين الشرق والغرب ، وحقا لئن كانت صفقة تفوق صفقة أبي غبشان في الخضارة والغبن ، فهي تلك التي جعلت أسد البحر ابن ماجد يتقود رائد البرتغاليين إلى ميناء كاليكت (Calicut) في سنة 1498 م .

فأثر تجارة الهند والصين في التطورات السياسية بين الأمم الشرقية والغربية معروف عند كثير من المؤرخين بإبرازه وتقدير خطورته ، إلا أن هناك ناحية أخرى طالما بقيت غامضة مطوية لم تلق الاهتمام اللائق بها إلا منذ زمن قريب ، ألا وهي تأثير العلاقات التجارية بالهند وما وراء الهند في حضارات الفرس والعرب والروم في العصور القديمة والوسطى ، ولا أجد ما أقدم به لهذا الموضوع أحسن مما كتبه البرونسور هيرن (Heeren) العالم المتخصص في العلاقات التجارية الدولية القديمة وهذا نصه :

لمتازت الهند منذ أقدم العصور بوفرة وتنوع إنتاجها النباتي والحيواني والمعدني كما أنها اشتهرت بجودة الصناعات المختلفة المرتكزة على ذلك الإنتاج الطبيعي ، ثم هي تصاقب من الناحية الشرقية بلاد الصين التي اقتصت بطائفة أخرى من الحاجيات والكماليات التي لم يكن للعالم الغربي يذمها ، ومن هنا نشأت « التجارة الشرقية » التي تنافس عليها المتنافسون من الفرس والعرب والروم ، وأخيرا أقوام أوربا الغربية ، أعني البرتغاليين والفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وقد استمرت هذه التجارة العالمية تجري من الشرق إلى الغرب حتى غير مجراها الآلات والمخترعات الحديثة وما أدت إليه من الانقلاب الصناعي والتقدم الاقتصادي في الممالك الغربية .

لقد كان لهذه التجارة أثرها الفعال في مداولة الأيام بين الناس ، فمثلا يقول العلامة بارتولد : « صارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية في زمن الساسانيين ... واستولت برا وبحرا على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر ، وبهذا الحادث يبتدىء انتقال التفوق في الحضارة من

الجغرافي ، أكثر تلك الشعوب اتصلا وحرصا على الاحتفاظ بدورهم في حركة استيراد المنتجات الهندية المختلفة ونقلها عبر أراضيهم الى شواطئ البحر الابيض المتوسط ، ولئن كنا نأسف حقا لعدم وجود المصادر اللازمة للحصول على معلومات وافية عن نشاط العرب في هذا الميدان فيما يتعلق بالمعصور السابقة للإسلام ، ففي وسعنا ان نتلافى هذا النقص بالرجوع الى لغة العرب وآدابهم (1) ودراستهما دراسة مقارنة الى جانب اللغات الهندية مثل ما فعل العلماء الأفرنج بشأن دراسة علاقات الروم بالهند ، وبما ان العرب كانوا في موقع وسط بين الروم والهند فقد القت بحوثهم أضواء على العلاقات العربية الهندية الا انها ، بطبيعة الحال ، أضواء جانبية فقط ، أما موضوع العلاقات العربية الهندية بالذات فقد بقي مغمورا مجهودا لا لشيء الا لعدم اتساع علم اللغويين الاول والمعنيين بالمعرب والدخيل في العربية الى الهند ولغاتها ، نراهم — وكثير منهم ينتمون الى أصل فارسي — يقتصر على أرجاع الكلمات الى الفارسية ، وفي بعض الأحيان يتقنون حائرين أمام كلمات لا يجدون لها أصلا بالفارسية فيأتون بتعليلات من الخيال (2) ان دلست على شيء فهو ان الكلمة عدت غريبة في نظرهم ، وأخيرا لفتت دراسات الغربيين النظر الى هذا الموضوع الشيق فأقبل عليه العلماء الهنود بجد واهتمام ،

وفعلا أثمرت جهودهم ثمرة طيبة من حيث انها مهدت الطريق أمام الباحثين في المستقبل الى ميدان واسع بكر .

*/

هناك ثلاث طرق سارت عليها تجارة الهند الى موانئ البحر الابيض المتوسط :

"Of all the divisions of Asia the southern, containing the territory of Hindustan, is distinguished by the richness and diversity of its productions. Here we not only find, with very few exceptions, all the products of other parts of civilised Asia, but so great a variety peculiar to its own climate, that it would appear as if a new and more beautiful creation had sprung up under the hand of nature. Nearly all the spices, which become necessary to mankind in exact proportion to the progress of luxury and refinement, have at all times been peculiar to this region, while two of the most important articles used in clothing, viz., cotton and silk, were first produced here, and continue to be so in an especial degree, though their cultivation has been gradually extended to other countries The influence which an intercourse with India may have had on the civilisation of mankind, is a question worthy the close attention of the philosophical student of history; and one which, notwithstanding the important illustrations it has of late received, has been by no means sufficiently elucidated. It is of the greatest consequence to ascertain the channels through which, at various periods, it found its way, or into which it was conducted; and the whole course of history tends to prove that the countries which became the staples or depots of this commerce, uniformly attained a high degree of opulence and refinement; which, however, gradually changed the habits and corrupted the manners of their inhabitants; at the same time that these were softened, sowing among them the seeds of luxury, and consequently of decline and ruin." A. H. L. Heeren: *Historical Researches into the Politics, Intercourse and Trade of the principal Nations of Antiquity*, Oxford, 1833, vol. I, pp. 35-56.

اذن كان من اثر تجارة الهند ان تطورت سبل المعيشة وأساليب الحياة ، بل وتغيرت الأمزجة والطباع لغير واحد من الشعوب القاطنة غربي الهند، وغني عن القول ان العرب ، بالاشتراك مع الفرس كان الخليج الفارسي ، كانوا ، بطبيعة مركزهم

(1) يقرر الاستاذ هيرن هذا الأصل بقوله :

"We too often find ourselves without the information necessary to follow the course of trade into the most remote regions; but when we meet with the mention of articles which are unquestionably peculiar to certain countries, we are warranted in concluding that a communication then existed with those countries, though we may be unable to define its nature and extent. A piece of sugar or a morsel of pepper in a neglected corner of a village inn would be a certain proof of the trade with either Indies, even if we possessed no other evidence of the commerce of the Dutch and English with these countries." Heeren, 139-40.

(2) راجع مثلا تحقيقنا عن « الفالج » و « القلبي » والكلام على « الشمال » في الصفحات التالية .

1) برا من المرات على الحدود الشمالية الغربية للهند الى بلخ ، ثم على خط سير القوافل شمال صحراء كرمان الى المدائن الى انطاكية والموانئ المجاورة لها .

ب - بحرا من الساحل الغربي للهند الى الخليج الفارسي مصعدا بالفرات ثم برا الى انطاكية والموانئ المجاورة لها .

ج - بحرا من الساحل الغربي للهند الى ساحل عمان الى ساحل اليمن ومن هناك اما على طول ساحل البحر الاحمر او على خط سير القوافل الى موانئ سوريا وفلسطين .

غني عن القول ان الطريق البري استخدم قبل ان يستخدم الطريقان البحريان ، فعلا وجد علماء الآثار ما يؤكد ان العلاقات بين ارض الانهار الخمسة (البنجاب) وارض الرافدين ترجع الى عشرين القرون قبل عهد التاريخ المنتظم (3) الا ان التجارة عن هذا الطريق كانت عبارة عن انتقال البضائع من قبيلة الى اخرى ضد احوال طبيعية صعبة وكانت ايضا متأرجحة لعدم استقرار الاحوال السياسية ، ولذلك كان التحول الى الطريق البحري ايدانا بزيادة ملحوظة في التبادل التجاري بين البلدين .

والدليل الموثوق به على جلب البضائع برا من الهند فيلة (4) على مسلة (Shalmanassar) (858 - 824 ق . م) ذكرت باسم غير معهود في الاشورية هو (Baziati) عن السنسكريتية (Vasita) وبما ان الفيلة ذكرت الى جانب « الابل من (Bactria) ذات السنامين » يتأكد لدينا انها نقلت بالطريق البري عبر الحدود الشمالية الغربية للهند (5) .

ولا بأس بان نقف قليلا عند ذكر « الابل من Bactria » في القرن التاسع ق.م فنلاحظ ان من أشهر

واعز اصناف الابل عند العرب « البختية » وهي على حد قولهم « الابل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج » (اللسان) والفالج : البعير ذو السنامين... يحمل من السند للفحلة (الصحاح) وصف الفالج بهذه الصفة ابن حوقل سنة 350 هـ (6) والمقدسي سنة 375 هـ حيث يقول هو الآخر :

(من خصائص السند) « الفالج الذي تسراه بالشرق وفارس يولد البخاتي وهو اعظم من البخت له سنمان مليح لا يستعمل ولا يملكه الا الملوك ولا تكون البخت الا منه » (7) .

والفالج كلمة سندي محلية والجيم فيها علامة العجمة لا غير مع ان بعضهم لم يعد مهم التعليل بان الفالج « يسمى بذلك لان سنانه نصفان » (المخصص 68/7) !!! وكذلك البختية « دخيل في العربية اعجمي معرب » (اللسان ومثله في المخصص 135/7 عن صاحب العين) . اذن فما هو اصل الكلمة ؟ لم ينصوا عليه بل ربما لم يهتموا اليه حتى ان بعضهم اجترا على القول بان الكلمة عربية (انظر اللسان) ... على كل حال ما من شك في ان « البختية » لم تكن غير « الابل من Bactria » .

ومن الجدير بالملاحظة ايضا في هذا الصدد ان اصحاب المعاجم قد فرقوا ، جريا على عادتهم ، بين مادتي « بخت » و « بخر » الا ان مشية الجبال البختية طوال الاعناق ذات السنامين هي اشبه شيء بمشية الخيلاء وقد جرت العرب على هذا المنوال في قولها « تفختت » من مشي الفاخرة (المخصص 109/3) ومن الثابت ايضا انها كانت تصف النساء « بالبخت » قال الشاعر :

وفيهن من بخت النساء سبحة
تكاد على غر السحاب تروق (9)

Wilson: The Persian Gulf, p. 28 (3)

4) الفارسية « pil » السنسكريتية « pilu » الا ان بعض العلماء يذهبون الى ان هذه الكلمة ليست اصيلة في السنسكريتية . انظر Hobson-Jobson, (Supplement, « Elephant »

5) Kennedy, J.; Early Commerce of Babylon with India. JRAS, 1897, p. 242-288

6) المسالك والممالك ص 231 .

7) احسن التقاسيم ص 482 .

7) احسن التقاسيم ص 482 .

8) انظر Dozy: Supplement

9) سمط الالائي 351 .

2 — العبرية (almug) (14) عن السنسكريتية والتاميلية (valgu) .

3) المبرية (Koph) القردة عن السنسكريتية (Kapi) (قارن المصرية القديمة (Kafu)) .

4 — العبرية (thuki-im) عن التاميلية (tokei-togai) وعنها الفارسية والعربية « طاووس » .

هذا بالإضافة الى الذهب والفضة والاحجار الثمينة التي تتألف منها قائمة البضائع المستوردة من الهند على ذلك العهد (15) .

ولا يخفى ان هذه الأدلة ، قليلة كما هي ، قد تناولها بعض العلماء بالتجريح والرفض (16) الا انهم في الوقت نفسه أكدوا أن عدم توفر الدليل لا يعني وجود ما يمنع التجارة البحرية ، بل بالعكس امتاز الدراوريون (Dravidians) سكان جنوب الهند منذقديم الزمان بالاتجاه الى الملاحة .

ومنذ القرن السادس ق.م ينقشع الظلام وتتوفر لدينا الأدلة القاطعة على ازدهار التجارة البحرية ، منها :

1 — العثور على قطع من الساج (الرهتية (Sag)) وغيره من الاخشاب الهندية في قصر نبخت نصر (Nebuchadnezzar) (604 — 562 ق.م) وفي معبد اله القبر الذي جدد نبخت نصر بناءه ب(Ur) .

2 — انتشار عدد كبير من البضائع الهندية في اليونان حيث كانت ترد عن طريق بابل ولا تزال

اما العلاقات التجارية البحرية بين المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي الى البحر الأحمر وبين الهند فمن المقطوع به انها راسخة في القدم الا ان الأدلة فيما يتعلق بالفترة السابقة لسنة 700 ق.م ليست بكثيرة ، من اهمها :

1 — ورد في الكتابات التي ترجع الى ما قبل 2000 ق.م ان الاكاديين كانوا يستوردون الاخشاب من (Magan) اي عمان ، ويرجح ان تلك الاخشاب انما كان اهل عمان بدورهم يجلبونها من الساحل الغربي للهند (10) .

2 — كلمة (Sindhu) الواردة في مكتبة (Assurbanipal) (668 — 626 ق.م) انما يرجع أصلها الى الهند وهي تعني « القطن الهندي » ومنها العبرية (Sadin) والعربية « سدين » (11) .

3 — كلمة « Karpas » العبرية توافق السنسكريتية « Karpasa » .

4 — في القرن العاشر ق.م استعان سليمان ، جريا على سياسة أبيه داود ، بالفينقيين لتنشيط حركة الملاحة والتجارة بين ميناء (Ezion Geber) (العقبة) (12) و Abhira = Ophir اعالي الساحل الغربي للهند (13) وتعد الكلمات الآتية من آثار هذه الحركة التي كانت ولا شك اقدم بكثير من عهد سليمان ، ولم يكن منه الا أن جعلها مباشرة بعد ان كانت تجري على أيدي وسطاء كثيرين :

1 — العبرية «Shen Habbin» = « سن الفيل » (العاج) عن السنسكريتية « ibha-danta » .

(10) انظر Wilson: The Persian Gulf, p. 27 ولعل Magan هي « مزون » بالعربية .

(11) H. J. Rawlinson: Intercourse Between India and the Western World, Cambridge. 1926, p. 2-3

(12) لقد أمكن تحديد الموقع بتل الخليفة غربي العقبة على اثر الاعمال التي قامت بها بعثة أمريكية هناك اثناء 40 — 1938 م .

(13) اختلف كثيرا بشأن Ophir بعضهم قرأوا الكلمة Sophir « سوبارة » بالهند أيضا او « ظفار » باليمن او « سفالة » الزنج ، الا ان المرجح انها كانت بالهند .

(14) نوع من الخشب الثمين ، الصندل الاحمر على الأرجح راجع Cheyne: Ency. Biblica

(15) Rawlinson, pp. 10-11

(16) في مقدمة هؤلاء الأستاذ J. Kennedy الذي مضت الإشارة اليه .

الإلحاح اليهم) قيل أنهم اثاروا اعجاب أهل بابل بالغرابة
تارة وبالطاووس تارة أخرى .

ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه بأن تجارة الهند
هذه كانت السبب الرئيسي في رخاء بابل وعظمتها التي
بلغت أوجها في هذا العصر حتى اثارته حسد فرعون
مصر (نخاو) (Necho) 612 - 596 ق.م) فما كان
منه الا أن بذل الكثير من الاموال والارواح في سبيل
اعادة بناء القناة الموصلة من النيل الى البحر الأحمر،
تلك التي كان امتتحها لأول مرة (Sesostris)
في القرن العشرين ق.م .

/*

وقد كان لهذه العلاقات أيضا اثر خالد في أربع
من اهم نواحي الحضارة في الهند :

I - الخط البراهمي (Brahmi) ، الذي تفرعت
منه الخطوط الهندية المختلفة، انما كان من أصل سامي
توي الشبه بالحروف الفينيقية الى درجة تؤكد أنه دخل
الهند عن طريق الساحل الغربي على أيدي التجار
الفينيقيين وقد حدد الدكتور بوهلر (Dr. Bühler)
تاريخ دخوله الهند بسنة 800 ق.م ومع أن هذا
التحديد لا يزال موضع نقاش الا أنه من البديهي أن
الخط لابد أن يكون قد مضى عليه قرون قبل أن
يتطور فيتلاءم مع مقتضيات اللغات الهندية كما يبدو

اسماؤها اليونانية والعربية ترشدنا الى أصلها فمثلا :
السنسكرتية (Chandan) = العربية (صندل) .
التاملية (Arisi) = العربية (الأرز) (17) .
التاملية (Karppu) = العربية (قرفة) .
التاملية (Inchiver) = العربية (زنجبيل) .
التاملية (Pippalij) = العربية (غفل) .
السنسكرتية والتاملية (18) (Vaidurya)
= العربية (بلور)
السنسكرتية (Kirmi) = العربية (قرمز)
فهذه هي بعض الكلمات الهندية الأصل التي
دخلت اللغة اليونانية عن طريق بابل في الفترة التي
نحن بصدها (19) .

وقد بحث العلماء عن التطورات التي أدت الى
نمو التجارة البحرية بين بابل والهند في القرنين
السابع والسادس ق.م فوجدوا أن تلك الظاهرة توافق
تفكيك (Sennacherib) بالكلدانيين واحلال الفينيقيين
محلهم في سنة 694 ق.م لأن الكلدانيين الذين سكنوا
« سيف البحر » (20) منذ القرن التاسع ق.م لم يكن
لهم من التفوق في الملاحة ما كان لأترانهم الفينيقيين
الذين جلبهم الملك الآشوري من أعالي دجلة والفرات
وعلى هذا يمكن القول بأن شجاعة الفينيقيين
وخبيرتهم بأعمال الملاحة والتجارة التي اكتسبوها في
موطنهم الغربي هما اللتان تغلبتا على مخاوف البحر
الهندي (21) . ومن ناحية أخرى نجد في المصادر
الهندية الراجعة الى هذا العهد ولاسيما المجموعة
المسماة بـ « Baveru Jataka » قصصا عن
التجار الهنود (أغلبهم من الدراويرين الذين مضى

(17) الرز والأرز والرنز لغات فيه (* الإنجليزية « Rice ») وقد اتجه بعض العلماء أخيرا الى الاعتقاد
بأن المركز الذي انتشر منه الأرز في العالم هو التركستان ولذلك قالوا أن أصل الكلمة هو
« virinzi/virinza » بالفارسية القديمة = « briinj » بالفارسية الجديدة = « vrihi » بالسنسكرتية .

انظر : Sir George Watt: The Commercial Products of India
London, 1908, p. 824 etseq.

وليعلم أن كلمة أخرى مماثلة « البهط : الأرز يطبخ باللبن والسمن خاصة » هندية أيضا كما جاء في
المخصص 3/5 وأصلها « bhata » .

(18) بالبراكرتية « Vailurya » انظر : Hobson-Jobson « Beryl »
(19) Rawlinson, p. 14

(20) « Sealand » الوارد ذكره في الكتابات السامرية والممتد من مصب الفرات الى
= البحرين (فارس نامه لابن البلخي تذكرجرب، 1921 م ص 140) ويظهر أن العرب كانوا يعنون
بـ « السيف » هذا السيف الغربي للخليج الفارسي خاصة ، قال الأخنس بن شهاب :
لكيز لها البحرين والسيف كلسه وان ياتها بأس من الهند كارب (المفضلية 41 / 9)

(21) راجع مقال Kennedy السالف الذكر .

في الكتابات التي يرجع عهدا الى القرن الثالث ق م وهي اقدم الكتابات التي عثر عليها في الهند (22) .

2 - نظام منازل القمر المهود عند الهنود
انما هو مأخوذ من بابل .
(Nakshatras)

3 - يرجح الاستاذ كينيدي (Kennedy) أن الهنود انما اقتبسوا نظام التعامل بالعملة المعروفة بـ « Puranas » مما كان متبعاً عند أهل بابل (23) ولا يخفى أن (Puranas) اقدم عملة عرفت بالهند وقد استمر التعامل بها الى عهد قريب ، ويرى كاتب هذا المقال انها هي المعنية بـ « الفهري » عند مسعر بن مهلهل (24) و « الفهري » (تصحيف « الفهري » أو « الفهري ») ، عند المقدسي (25) .

4 - يتبين بعض العلماء علاقة ما بين الاوزان الهندية القديمة وبين مثيلاتها عند أهل بابل مثل « المن » اذ ان امرها مشكوك فيه جدا (26) .

/*/

في سنة 538 ق.م : امتدت سيطرة الفرس على بابل وغرب آسيا كلها وامتازوا بالجمع بين مصر من جهة ووادي السند من جهة أخرى في جورتهم الا ان هذه الميزة ، التي لا يمكن التقليل من أهميتها ، لم تستخدم ، كنتيجة للمنازعات السياسية ، لتسهيل التبادل بين المناطق الثلاث (البنجاب وبابل ومصر) التي كانت أهم مراكز التجارة الدولية ، ومن ثم يعتبر هذا العهد - عهد الأخمينيين (Achaemenians) الذي

/*/

في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م. قلب الاسكندر الاوضاع ببسط سلطانه الى حدود السند

- (22) Cam. Hist. of India I, pp. 140-142 وانظر ايضا دائرة المعارف البريطانية « Sanskrit »
(23) راجع الجزء الثالث من مقاله الذي سبقت الاشارة اليه .
(24) البلدان لياقوت « الصين » : « درهمهم (أهل كله) يزن ثلثي درهم ويعرف بالفهري » .
(25) أحسن التقاسيم 482 - في نسخة « الفهري » وليعلم ان المقدسي نفسه ينص على القهريات غير « القاهريات » أو « القندهاريات » (كما عند ابن حوقل 228 والاصطخري 173) = كل درهم منها خمسة دراهم .
(26) Rawlinson, p. 15
(27) لعل تحول تجارة الهند عن طريق الخليج الفارسي الى طريق البحر الأحمر كان قد بدا في عهد نبخت نصر ويعلل ونسنت Vincent تخريب ذلك الملك لمدينة صور بهذا السيف نفسه . انظر Wilson, p. 33 .
(*) بحذاء هجر في الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع « المعتير » وهي الآن ميناء صغير وعلى مقربة منها خرائب يعتقد العلماء انها موضع (Gerrha) = جرهاء . (الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 140/1) .

وسرعان ما أبدى اهتمامه باعادة النشاط التجاري بين ساحل الهند والخليج الفارسي فأرسل بعثة استكشافية لهذا الغرض تحت قيادة (Nearchus) على غرار ما كان فعله دارا الأكبر من قبل الا ان موته حال دون القيام بأي عمل آخر في هذا الشأن. أما خلفاؤه الذين اقتبسوا المملكة بينهم فقد شغلوا بالحروب الأهلية حتى ان السلوقيين (Seleucids) لم يكن يهمهم غير الحصول على الفيلة من الهند عن طريق ايران كما ان خصمهم في مصر بطليموس الثاني كان معنى بجلب ذلك الحيوان من الحبشة لأغراض حربية ولكن السى جانب ذلك تلاحظ ان العلاقات بين ملوك الهند من جهة وملوك الشام ومصر من جهة أخرى كانت في هذه الفترة أكثر وثوقا من ذي قبل ، لا ادل على ذلك من ومسود (Megasthenes) و (Dionysius) سفيرين لسلوكس وبتليموس على الترتيب لدى بلاط جندر كبت موريا (Chandragupta Maurya) ومما يذكر عن ملك الهند هذا انه اقام عددا من الموظفين للاتصال بالاجانب والسهر على راحتهم اثناء زيارتهم للهند ويستنتج من هذا كله ان التجارة بين الهند والخليج الفارسي لم تكن قد وفتت أو هبطت الى درجة كبيرة، ثم ساعدت الاحوال السائدة بأعالي الخليج على تركيز هذه التجارة في أيدي اهل Gerra الذين ربما كانت تتألف أغلبيتهم الآن من العرب وفي نفس الوقت كان نشاط سبأ في ازدياد مستمر وقد شاركهم في هذا النشاط التبتيون بأعالي البحر الأحمر ، أولئك القوم الذين ما كانت عاصمتهم الرقيم (Petra) لتتسال شهرتها في التاريخ لولا انها وقعت موقعا هاما على خطي سير للتوافل من اليمن ومن العقبة (Aelana) ايضا .

/*/

لقد انضج مما سبق ان مصير سبأ ورخاءها وحضارتها كانت مرتبطة ارتباطا تاما باستمرار تجارة الهند على الخط البري المحاذي لساحل البحر الأحمر الى أسواق الشام ، وعملا نرى تجار سبأ حريصين حرصا بالغا على الاحتفاظ بهذا الخط الى حد ان

الروم واليونان كانوا يمتدنون طوال هذه المدة ان المنتجات الهندية التي كانت تنقل اليهم عن هذا الطريق كانت من منتجات اليمن المحلية (28) . ويجدر بالملاحظة في هذا المقام ان الأخطار الشديدة التي كانت تحدق بالملاحة في البحر الأحمر فوق عدن من عدم وجود موانئ صالحة وثلة الماء والقرصنة وما إليها كانت من أهم العوامل التي جعلت من الخط البري الطريق المفضل ترونا عديدة ، الا ان اليونانيين كانوا دائما يبذلون محاولات جديفة للتغلب على تلك الصعاب من تاعدتهم في مصر مما جعل اليمنيين يرتقبون تصرفاتهم بيقظة وحذر ، فمثلا لما عمد بطليموس الثاني (285 – 246 ق.م) ، الذي كانت سلطته تمتد الى فينيقية وفلسطين ، الى اعادة فتح القناة القديمة بين النيل والسويس (Arsinoe) أولا وانشاء الطريقين الصحراويين من (Koptos) الى (Berenike) ومن (Koptos) الى (Myos Hormos) ثانيا أحدث ذلك رد فعل قوي بين اليمنيين . على كل حال اتصى ما توصل اليه اليونان ، بعد هذه الجهود المضنية ، هو ابتياع البضائع الهندية من حين الى آخر في الموانئ اليمنية ، خاصة (Mouza) ، ثم نقلها الى (Koptos) كما مر بدون ان يتسنى لهم الاستغناء عن وساطة سبأ ومن المعتقد ان النساء والكلاب والثيران والإبقار والتوابل الهندية المحملة على الجمال ، تلك التي ازدان بها الموكب التاريخي لبطليموس الثاني سنة 271 – 270 ق.م انها وصلت الى عاصمة مصر بعد اعادة شحنها في الموانئ اليمنية . نعم وقد برز في هذه الآونة أيضا اسم جزيرة سقططرة (29) كسوق دولي هاجر إليها واستوطنها اليونانيون (30) للمشاركة في تجارة الهند والحبشة .

مختلصة القول ان تجارة الهند ما زالت تتحول من الخليج الفارسي الى البحر الأحمر منذ بدايته عهد الفرس الاخمينيين ، بل وقيل ذلك منذ أيام بخت نصر الى ان أصبح الطريق الأخير هو الطريق الرئيسي في القرن الثاني ق.م وفي هذه الفترة بالذات أي منذ انتقال الكلدانيين الى (Gerra) بدأ العرب سكان المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية والجنوبية

(28) Hitti : Hist. of the Arabs, p. 48

(29) السنسكريتية « Dvipa Sukhatara » اي جزيرة السعادة.

(30) يقول أبو زيد السيرافي ، سلسلة التواريخ ، باريس 1845 ، ص 133 – 134 ، ان الإسكندر هو الذي اهتم باسكان اليونانيين تلك الجزيرة تحقيقا لرغبة ارسطاطاليس في الاستيلاء على منابت الصبر بها .

يمارسون هذه التجارة ويستولون عليها أكثر حتى أصبحوا مخترين لها يعضون على احتكارهم بالنواجد ولم يستطع عملاؤهم اليونان ، مع شدة قلقهم ، أحداث أي تغيير جوهري في الوضع حتى القرن الثاني ق.م.

/*/

ولكن ما كاد القرن الثاني يقترب من النهاية حتى حدث ما كان في الواقع بداية لنهاية أمر العرب وهو أن ملاحا هنديا غرقت سفينته فوصل في قارب النجاة إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر حيث تولى الخفر نقله إلى الاسكندرية ، وبينما هو في تلك المدينة وقد أخذه الحنين إلى الوطن إذ التقى بـ (Eudoxus of Cyzicus) الذي كان له باع في علم الجغرافيا ، ولم يمض وقت طويل حتى تواعد الاثنان وحصلا على موافقة الملك (Evergetes II) ومساعدته للقيام برحلة إلى الهند وقد تم ذلك فعلا ما بين 120 - 110 ق.م (31) فرجع الملاح الهندي إلى أهله بعد أن دل يودوكسس على الطريق إلى الأرض التي كان يسمع عنها اليونان أن بها « أشجارا تثبت الصوف » و « أحجارا تذيب في الفم فتكون أحلى من التين ومن العسل » (القطن والنكر على حد تعبير Herodotus, Megasthenes على الترتيب) .

ولم تكن نتائج هذه الرحلة ، التي كانت الأولى من نوعها ، لتضيق على الملاحين اليونان فقد اتبعها يودوكسس نفسه على الأقل برحلة أخرى وما من شك أن آخرين حذوا حذوه من حين لآخر لانا نفاجا قبل مضي فترة طويلة بسبق الملاح اليوناني ، المتمثل في (Hippalus) ، على العرب إلى الاكتشاف عن طريقة استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في السفر إلى الهند أيام الصيف . من المؤكد أن العرب لم يكونوا يجهلون الرياح الموسمية ، كفى دليلا على ذلك أن الكلمة العربية « موسمية » هي التي انتقلت وتطورت

إلى (monsoon) لكنهم ، لسبب ما ، لم يكونوا قادرين على استخدامها إبان هياج البحر في فصل الصيف بالذات (32). مهما يكن من أمر فإن ما امتاز به اليونان كان كشافا عظيما أدى إلى انقلاب خطير في طريق الملاحة والتجارة ويؤرخ هذا الكشف - كشف (Hippalus) - في سنة 45 م إلا أن بين أيدينا أدلة على تغلغل اليونان وكثرة ترددهم على المناطق التجارية بالهند قبل ذلك، منها إيفاد بعثة من قبل الملك (Pandion) بأقصى جنوب الهند (33) إلى (Augustus) بمصر في سنة 20 ق.م ، كذلك شهادة استرابو (Strabo) الصريحة بأن 120 مركبسا سارت إلى الهند في سنة واحدة (25 ق.م) من ميناء (Myos Hormos) ، ثم لا يخفى أن حملة (Aulus Galus) على اليمن في عهد (Augustus) نفسه سنة 24 ق.م لم تكن إلا حلقة في سلسلة الخطوات لانتزاع تجارة الهند من أيدي العرب (34) . وذلك بالتواطؤ مع النبطيين شركاء سبأ الذين سبقت الإشارة إليهم ، لكن الحملة فشلت فشلا ذريعا وظل مركز العرب قويا وكان ناقوس الخطر قد دق والخراب يتسرب إلى اليمن رويدا رويدا .

وبمناسبة ذكر الملك (Pandion) لا بأس بأن نستطرد قليلا لنضرب مثلا للفائدة التي تعود على الأدب العربي من الدراسات المقارنة فنقول ان مملكة (Pandya) بأقصى جنوب الهند قد اشتهرت من قديم الزمان بمفاصات اللؤلؤ الواقعة في المياه الضيقة بين ساحل الهند وجزيرة سيلان وجاء عنها في الأساطير الهندوكية أن الإله كرشن (Krishna) جمع اللآلئ من أنحاء العالم وركزها في تلك المنطقة لتترين بها ابنته ملكة (Pandya) . لقد ذكر (Megasthenes) المفاصات والأسطورة المتعلقة بها (35) كما لم يغفل الأشادة بها أحد من الزائرين لتلك المنطقة في جميع العصور من بينهم سليمان التاجر (36) وماركو بولو (37)

(31) انظر : Rawlinson, p. 96-99

(32) سيدد القاريء بحثا قويا عن هذا الموضوع في : George Fadlo Hourani

Arab Sea-faring in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 25

(33) « Pandion » = Pandya هذا هو التفسير السائد وقد ذهب البعض إلى أن المراد به

(Kadphises I) « Porus » بالمنطقة الشمالية الغربية انظر : Rawlinson, p. 108

(34) انظر : Hitti, p. 46

(35) Cam. Hist. of India

(36) سلسلة التواريخ ص 120 .

معظمها كانت قد تحولت الى اليمن والبحر الأحمر .
ومن الجدير بالملاحظة أن هؤلاء التجار الوسطاء على
ساحل الخليج الفارسي استمروا في أعمالهم ونشاطهم
طوال قرون عديدة بدون أية محاولة للتدخل من قبل
السلوقيين اللهم الا ما كان من (Antiochus III)
الذي أغار على (Gerrha) حوالي سنة 205 ق.م
لكنه سرعان ما رضي بالرجوع تانعا بالفنائم والهدايا
من البضائع التي كان الأهالي يتجرون بها ولا يخفى أن
السلوقيين كانت لهم تجارة واسعة بالهند عن طريق
البر (إيران) وهكذا ظل الحال أيام البارثيين
(Parthians) الذين استولوا على بابل والمدائن ما
بين 140 و 130 ق.م فمهم أيضا تصروا اهتمامهم على
تجارة الهند (والصين أيضا) عن طريق البر فقط (42)
وقد كانت تكفي لتدر عليهم أرباحا طائلة . على كل حال
لم يحدث في منطقة الخليج الفارسي مثل ما حدث في
منطقة البحر الأحمر من منافسة اليونان للعرب .

/*/

لم تكد دعائم الامبراطورية الرومانية تتوطد في
سوريا وفي مصر قبيل بدء التقويم المسيحي حتى نعمت
البلاد بالاستقرار وتأمين السبل والقضاء على
القرصنة مما أدى الى شدة الاقبال على سلع
الكماليات المستوردة من الهند والصين في رومسا
والاسكندرية والمدن الأخرى ، ولذلك يعتبر القرن الأول
المسيحي ازهى عصور تجارة الهند بالغرب ، أما
التطورات التي كانت قد حدثت في سير هذه التجارة
بالنسبة الى العرب فتبينها بوضوح فى مذكرات بحار
يوناني مجهول كتبها حوالي سنة 80 م باسم
(The Periplus of the Erythraean Sea)
— تتبين منها ان الملاحين الروم كانوا اذ ذاك يبحرون
راسا من قنا أو من (Ocelis) الى
(Cranganore = Muziris)
بالجزء الاسفل من الساحل الغربي للهند وذلك في
الحقيقة يمثل تقدما كبيرا على ما جرت عليه العرب

الا انه كان بهذه المنطقة ميناء هام ربما سار اسمه مع
اللاي التي كانت تصدر منه وهو (Kolkai) (38)
وبما ان مياه البحر انحسرت وأبتعد الساحل من موقع
هذا الميناء اثناء العصور القديمة نفسها اختفت الإشارة
اليه فيما عدا المصادر اليونانية الراجعة الى الفترة
التي نحن بصدددها ، ثم مضت قرون فاجأنا على اثرها
الشاعر العربي علقمة بقوله :

محال كأجواز الجراد ولؤلؤ
من القلطي والكبيسي الملوب (39)

كذلك قول ابن الرومي أيضا :

يفتر ذاك السواد عن يقق
من ثغرها كاللا القلق (40)

« القلطي » ؟ = الـ (Kolkai) لا غير . لكن
انظر ما جاء عنه فى اللسان « القلطي ضرب من الحلبي ،
قال ابن سيده : ولا أدري الى أي شيء نسب الا أن
يكون منسوباً الى القلق الذي هو الاضطراب كأنه
يضطرب فى سلكه ولا يثبت .. » ! وفى بعض الاحيان
الجات الحيرة النساخ الى التحريف : « القلعي » بدل
« القلطي » — الا ان الأمر لم يزل مغلقا .

لقد سبق أن رأينا ما كان لـ (Gerrha)
من شأن كبير فى التجارة الدولية ، يبين لنا
(Eratosthanes) (276 — 194 ق.م كيف أن أهلها —
ولاشك أن غالبيتهم كانت من العرب — كانوا يقومون
بنقل انواع الطيب والبضائع الأخرى المجلوبة من جنوبي
جزيرة العرب والحبشة الى بابل و (Seleucia)
كانوا ينقلونها بالقوافل البرية وربما أيضا بالسفن
التي كانت تصعد بدجلة الى (Seleucia) نفسها (41)
وقد كان لهم نصيب من تجارة الهند أيضا مع أن

- The Travels of Marco Polo, Broadway Travellers, London, 1931, pp. 292-293 (37)
على نهر Tamraparni باتليم Tinnevely انظر The Periplus of the Erythraean Sea (Schoff), 1912, p. 237 (38)
العقد الثمين ق 4/1 (39)
كتاب التشبيهات لابن أبي عون — تفكركب — ص 97 (40)
Wilson, p. 45 (41)
Hourani, p. 14 (42)

من السير بمحاذاة الساحل الى «منطقة البوازيج» (43) أي كجرات (Gujerat) وربما انحدروا من هناك الى ساحل المليبار أيضا - إلا أن الروم ، على الرغم من تفوقهم هذا ، كانوا لا يزالون بعيدين من القضاء على نفوذ العرب القديم في الأسواق الهندية ، يذكر أن الروم لم يكونوا يستطيعون الحصول على الترفنة (اللحاء) إلا في رأس (Guadrafui) لأنها كانت تحجب عنهم في الأسواق الاصلية بينما كان ورق تلك الشجرة ، شجرة الترفنة نفسها ، معروضا عليهم في المليبار حتى اشتهر بينهم باسم (Malabathrum) (44) وهذا ا طرف مثال للاواصر الوطيدة بين المصدرين من التجار الهندوس والوسطاء العرب ضد عملائهم الروم .

لكن لا يظن أن الاتفاق بين الشريكين القديمين كان كفيلا بمقاومة تغلغل الدخيل الجديد الذي اقتحم الميدان مسلحا بالتفوق في طرق الملاحة فان المصدر نفسه أعني (Periplus) يحددنا أيضا عن الموالاة بين الروم وبين حمير ملوك ظفار الذين كانوا قد حلوا محل سبأ منذ حوالي 115 ق.م ، وذلك شاهد على أن العرب وان لم يكونوا قد تركوا الميدان إلا أنهم كانوا قد بدأوا يهادنون خصومهم وهل ذلك إلا كنتيجة للضعف والوهن ؟

ومما زاد الطين بلة ظهور منافس جديد للعرب في تجارة الهند . لا يخفى أن الهندوس كانت لهم علاقات تجارية قديمة جدا بساحل الصومال والحيشة ، لا ادل على ذلك من أن المصادر الهندوسية تحتوي على أقدم الاشارات الى « رجال التمر » و « جبال التمر (45) ، ثم أن العرب ، وان لم يرحبوا بالتجار الهندوس في الموانئ اليمنية ، كانوا قد أمسكوا عن مزاحمتهم في منطقة شرق أفريقيا (46) حتى أصبحت ملقبة للتجار الهنود والعرب واليونان والروم أيضا وقد ظلت على حالها هذه الى أن بدأ الحبشيون يتطلعون في الفترة التي نحن بصدها الى نصيب أكبر لانفسهم من تجارة الهند وسرعان ما راحوا ينشدون تحالفا مع الروم ضد العرب لهذا الغرض (47) وهكذا أصبحوا عاملا جديدا كان له شأن يذكر فيما بعد .

على كل حال بلغ استهلاك البضائع الشرقية ، ولاسيما انواع الطيب ، ذروته في عهد نيرو (Nero) - 54 - 68 م - فقد ذكر بيلني (Pilny) أن المملكة الرومانية كانت تتكبد ما يقدر بمليون ومائة الف جنيه سنويا ثمنا لمشترياتها من جزيرة العرب والهند والصين وكان نصف هذا المبلغ تقريبا من نصيب الهند وحدها (48) . وقد اضطر الملوك الذين جاءوا من بعد الى مرض بعض التقشف صونا للمركز المالي الا أن حركة الاستيراد ما زالت قوية حتى كان عهد طراجن (Trajan) 98 - 117 م - الذي سعى لتضييق الخناق على العرب وذلك باعادة فتح القناة القديمة بين النيل والبحر الاحمر . (وكانت قد انسدت منذ عهد البطليموس الثاني) وتوصيلها الى بابل مصر ثم بضم اقليم النبطيين ، الذين كانوا قد ساعدوا (Aulus Galus) ضد اليمانيين ، الى مملكته وانشاء طريق رئيسي من العقبة الى دمشق واخيرا بانتزاعه جميع الاراضي الممتدة الى (Charax) و (Apologus) بأعالي الخليج الفارسي من أيدي البارتيين . لاشك أن فكرة السيطرة على هذين الميناءين كانت فكرة سليمة جريئة لانهما كانا على اتصال بحري شرقا بالهند وقد اتفق لطراجن نفسه حينما كان واقفا على رصيف Charax أن رأى سفينة تتأهب للاتلاع الى الهند فأسف على أنه لم يكن في وسعه التقدم الى تلك البلاد لكبره وكانت تمتد أيضا من الميناءين خطوط تجارية غريا الى موانئ الشام وعلى ذلك فقد أراد طراجن أن يتم له الجمع بين منطقتي الخليج الفارسي والبحر الاحمر تحت سيطرته وتلك ميزة لم تتيسر من قبل لغير دارا الاكبر والاسكندر وكان يرجى أن تكون لمثل هذه الخطوة آثار بعيدة لولا أن البارتيين سرعان ما استردوا ما كانوا قد فقدوه فاقترنت النتيجة على أن برز اسم مدينته (Palmyra) تدمر كخلف للرقيم التي خربها طراجن سنة 105 م وقد نال هذا المركز التجاري الجديد قسطا وافرا من الازدهار لأن الفريقين رأيا من مصلحتهما عدم التعرض له حتى بقي أهله يتجرون

(43) هكذا يسميها أبو الفداء : التكوين (باريس) ص 358 .

(44) Periplus ص 4

(45) المصدر نفسه ص 87 نقلا عن Speke : Discovery of the Source of the Nile

(46) المصدر نفسه ص 3

(47) Hitti ص 59

(48) Rawlinson ص 103

اشتد أيضا في الوقت نفسه مركز الأبحاث حتى أصبحوا المنازع الوحيد للفرس في تجارة الهند :

انتقل زمام الحكم من البارتيين الى الساسانيين في سنة 225 م ومن أهم ما امتاز به الساسانيون اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس - الناحية التي لم يلتفت اليها أسلافهم قط ، يتجلى هذا الاهتمام فيما قام به أول ملوك الأسرة الجديدة ، اردشيسر الأول (225 - 241 م) من انشاء الموانئ وما اليها . وفي مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر الخليج الفارسي ثم عن انتقام سابور الثاني من العرب بعد ذلك بزمن قليل مما يدل على تقدم الملاحة واجتياز المنصرين دورا من المزج والصح في بوتقة واحدة . وفي هذه الأثناء زالت روما وخلفتها قسطنطينية سنة 330 م كما ان حمير استكملت سيادتها على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب حتى أصبح التبغ « ملك سبأ وحضر موت ويعنات ونهامة » لكن حمير كانت الآن مهددة تماما من قبل الحبشيين الذين كان يجري في عروقهم دم المهاجرين من اليمن نفسها وفعلا بدأ ملوك كسوم (Axum) يتحرضون بسكان الساحل الشرقي للبحر الاحمر منذ اواخر القرن الثالث حتى نجحوا في النصف الاول من القرن الرابع في اخضاع حمير لسيادتهم ، ومع ان سيادتهم لم تدم الا برهة قصيرة استأنفت حمير بعدها استقلالها الا ان الحبشيين بقوا عاملا يعتد به في كل ما يتعلق بالتجارة والسياسة في البحر الاحمر .

لقد مررنا سريعا بالقرن الثالث والرابع والخامس لقلنا المصادر عنها غير ان الوثائق التي سردناها تعطينا فكرة عن التيارات الآخذة في النمو والاشتداد وما ان نصل الى القرن السادس حتى نرى نتائجها واضحة مستكملة وهي تلخص في استيلاء الحبشيين مرة أخرى على حمير سنة 525 م ، ومما يسترعي الانتباه ان ذانواس لم يكن يملك أسطولا ولم يظهر اية مقاومة الا بعد وصول المهاجمين الى البر ، ثم جاءت النهاية الكبرى للخراب الذي كان يتسرب

في كلتا الملكتين المتخاصمتين ويتقلون البضائع بينهما وذلك الى سنة 273 م - الوقت الذي رأى فيه الروم ان الفرصة قد سنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت تد استولت على الرقيم من قبل .

يتجلى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150 - 160 م) مدى التقدم الذي كان قد أحرزه التجار الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعا على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا خليج البنغال بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges) و « بلاد الذهب » (جنوبي ملايو) كما ان واحدا منهم على الأقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكينج (Tong King) ، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166 م الى عاصمة الصين ليشكو من احتكار الايرانيين لتجارة الحرير ويعرض انشاء علاقات مباشرة عن طريق الهند (49) ومن جهة اخرى تفيدنا المصادر الهندية التاميلية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب الهند وانخراطهم في خدمة الامراء الهنود (50) كما ان ظهور التجار الهنود في أسواق الاسكندرية - الأمر الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن (51) يعد دليلا على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين الروم والهند .

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرنين الثاني والثالث بينما أصبحت العرب غير ذات شأن الى ان حدثت تطورات سياسية جديدة وساعات احوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي كان يتعامل بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة ان ركبت التجارة وتضاعفت الى ادنى حد بدليل انه لم يعثر في الهند على العملة الرومانية الراجعة الى ما بعد 211 م الا القليل النادر (52) .

*/

لقد رأينا أننا كيف ان العرب غلبت على تجارة الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلا ليجنوا من ثمرات نصرهم فسئرى كيف ان الفرس حلوا محل العرب والروم جميعا اثناء القرون التالية ، نعم وقد

(49) انظر Hirth: China & the Roman Orien, 1885 ص 173 - 178 .

(50) Rawlinson ص 121

(51) المصدر نفسه ص 140

(52) المصدر نفسه ص 151

لم ينجحوا في ذلك لما كان يتمتع به الفرس من النفوذ وحسن ادارة الامور في اسواق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه الى انشاء مراكز لهم في سقطورة وفي (Adulis) نفسها واخيرا نراهم يطردون الحبشيين من اليمن ويفتزعونها لانفسهم حوالي 570 م .

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق افريقيا من جهة اخرى ، وكان من الطبيعي ان يصبح الخليج الفارسي الطريق الرئيسي لتجارة الهند في عهدهم ، كما كان البحر الاحمر ابان نبوغ الروم من قبل . ونجد هذه الاحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد : فهل ادل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من ان الابل كانت تعرف بـ « فرج الهند » (55) كذلك يرجح ان « عدولية » في قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامن (56)

يجور بها الملاح طورا ويهتدي

هي السفينة المنسوبة الى (Adulis)

مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي .

بقي ان نتساءل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة في هذا العهد ؟ يبدو انه لم يكن لهم صفة مستقلة ، انما كان اهالي عمان وما حوالها

الى اليمن منذ قرون بشكل انشقاق سد مأرب ما بين 542 — 570 (53) اما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جدا ، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانئ الهندية وكانوا كما يشهد به (Procopius) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من « الصين » (Sinae) الساحلية في سيلان بينما كانوا هم انفسهم مسيطرين على الخطوط البرية الموصلة عبر وسط آسيا الى (Seres) مصدر « السرق » (54) اي الصين الشمالية . مغلظة القول انه لم يكن احد ينفذ من الحصار المضروب من قبل الفرس على الموانئ الهندية الا الحبشيون الذين كثيرا ما ترددوا ببضائعهم ، ولا سيما العاج ، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانئ الفرس انفسهم وكانت (Adulis) (حاليا Massawa) ميناء الحبشة الرئيسي (وتعادة الهجوم على اليمن) ، في هذا الوقت مركزا تجاريا هاما لان الروم كانوا قد اضطروا الى قصر نشاطهم على الاتصال بها والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المنذب الا قليلا ، وهل ادل على تخرج موقف الروم وعجزهم من انهم تو ما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531 م بسفارة من قبل الامبراطور (Justinian) الى اكسوم يطلبون من الحبشيين ان يحاولوا شراء الحرير راسا من الهنود وبيعه لهم (الروم) لكي تتوفر الاموال التي كان الروم مضطرين الى دفعها لاعادتهم الفرس، وفعلا حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح الا انهم

(53) المهم ان انشقاق سد مأرب كان نتيجة لا سببا لخراب اليمن وتشتت سببا . انظر Hitti ص 65
(54) ظل العالم الغربي يجهل حقيقة طويلة ان (Sinae) التي كان الوصول اليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول اليها عن طريق البر انما كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد ، كما ان سكانهما كانوا من شعب واحد ، وتمثل كلمة « السرق » بالعربية (* بالانجليزية « Silk ») الحرير الوارد عن طريق البر اي ايران (بالفارسية « سره » والاصل بالمنقولة (sirkek) والصينية « ssi ») انظر (Periplus) ص 266 .

(55) تاريخ الطبري (ليدن 12 / 2021 ، انظر ايضا 2023 حيث جاء : « كان فرج الهند اعظم فروج فارس شأننا واشدها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر »
(56) ورد ذكر ابن يامن في بيت لامرئ القيس ايضا:

او المكرعات من نخيل ابن يامن
المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت) . يرجح الدكتور سليمان الندوي انه كان تاجرا عربيا يهوديا هناك (عربون كي جهاز رائي ص 26) .

(57) انظر (Hourani) ص 42 . اما اللغويون فنجد اقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخبط : عن الاصمعي عدولي قرية بالبحرين ، وقيل موضع يسمى عدلولة ، وعن ابن الكلبي : عدولي ليسو من ربيعة ولا مضر ولا ممن يعرف من اليمن انما هم امة على حدة (كذا في اللسان « عدل ») .

قد اختلفوا اختلافا كبيرا بجيرانهم الفرس ، وكان من الطبيعي أن يشاركوهم أعمالهم مما اكسبهم دراية وخبرة . او لا نرى الى ازد عمان وهم يحتقرون لكونهم « مزونيين » وملاحين كما أن كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو الى أصل فارسي (58) . أما الصور الرائعة لمناظر البحر واهواله وسير السفن فيه التي يزخر بها ديوان العرب ، فلا يصح أن تتخذ دليلا على مزاوله العرب للملاحة أو اهتمامهم بها ولا سيما اذا كان هناك ما يؤكد استهجانهم لها ، إنما كانت تلك الصور كليشاهات نقلت الى داخل الجزيرة من المناطق الساحلية (59) .

/*/

على ضوء ما سردناه آنفا من الاوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع أن نفهم جيدا بعض الحوادث التي وقعت في أوائل العهد الإسلامي، فمثلا حملة أهل عمان البحرية على فارس وحتى سواحل الهند وكجرات بدون سابق اذن من الخليفة الثاني عمر إنما تدل على المعرفة القديمة والتحمس الجديد لإثبات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متفوقين عليهم من قبل ، كذلك نرى كيف أن عمر الذي كان حذرا خائفا من « حمل الدود على العود » اضطر الى السماح بمهاجمة (Adulis) لاشعار الحبشيين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسعت الفتوح الإسلامية حتى شملت مصر من جهة والهند من جهة أخرى فكانت النتيجة أن أصبح طريقا الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تأقت الحكومات المختلفة الى تحقيقها فلم توفق الى ازالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد رأينا من قبل وتبع هذا التطور الجديد أن ارتفع التنافس والتسابق بين المنطقتين ورجع نشاط كل منهما الى ما كانت تقتضيه طبيعة العمران والاستهلاك المحلي ، وبما أن خط الخليج الفارسي كان أكثر استقامة واقرب مسافة وأوثق اتصالا وأن التجار لم يلجأوا الى البحر الأحمر الا للضرورة ، لذلك استمر هو الأول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ

عهد الساسانيين ومما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة ملهوسة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم أوضح دليل على أهمية العلاقات التجارية التي نحن بمصددها، قال دهقان بغداد للمنصور : « ... تحمل اليك طرائف الهند والهند والصين والبصرة وواسط في دجلة ... » (60) .

يصدق هذا القول ما أورده الرحالون والجغرافيون أمثال سليمان التاجر (237 هـ) وابن خرداذبه (232 هـ) والمسعودي (332 هـ) والمقدسي (375 هـ) بشأن ازدهار التجارة والعمران في الأبله وسيراف والبصرة ، لقد كانت المراكب تطلع من هذه الموانئ الى مسقط ومن هناك رأسا الى كولم ملي (Quilon)

بجنوب الهند حيث كانت تفرق الطرق فاما الى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي واما الى سرنديب (جزيرة سيلان) وكله (Kedah بملايو) على الطريق الى الصين ، هذا فضلا عن حركة التجارة المتصلة بالموانئ القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن أشهرها الديبل على مصب نهر الهند وكتبايت وبروص (Broach الحالية) بكجرات وتانه وصيمور (Chimur) وسوباره (Churparaka = Sopara)

بإقليم بومباي ولنقدر مدى توثق العلاقات بين المصدرين الهنود وزيبتهم بقول سليمان عن ملوك الكمك (Konkon) أنهم « يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة وترغم أهل ملكة بلهرا (Rashtrakutas = «Vallabhrai») إنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب وليس في الملوك أشد حبا للعرب منه وكذلك أهل مملكته (61) لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في أسواق العرب ؟

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن انتشار الإسلام الى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيرا على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وقد كانوا اختلفوا

(58) المهلب بن أبي صفرة مثلا .

(59) انظر دائرة المعارف الإسلامية « السفينة » .

(60) البلدان لياقوت (ط أوربا) 681/1 .

(61) سلسلة التواريخ ص 27 .

يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم التي القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاعوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض تلك مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (63) .

ثم يحدثنا ابن خرداذبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه :

« هم جنس من الصقالبة فانهم يحملون جلود الخنز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وان صاروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخنز فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان ... وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الأبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية ، فأما مسلحهم في البر فان الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى افريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين (64) .

أما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار إليها بالأجمال أيوب بن القرية (من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما سأله الحجاج عن الهند فأجاب بقوله : « بحرها در وجبلها ياتوت وشجرها عطر » (65) . وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرافي حيث قال :

« بحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفي جباله الجواهر ومعادن الذهب ، وفي أفواه دوابه العاج ، وفي منابته الإبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الأنواع الطيبة الذكية وطبوره الغفافي (يعني البيفارات والطاويس) وخرشبات

وأمتزجوا إلى حد كبير في العصر السابق ، ولذلك تراهم في العصر الإسلامي يشتركون في أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم في استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من العسير التمييز بين العنصرين ، إلا أن نظرة واحدة على أسماء النواخذة الوارد ذكرهم في كتاب عجائب الهند ليزرك بن شهريار (62) تكفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبته أيضا .

أما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان وفقا لحاجة مصر لا غير والسبب نفسه يرجح أنه زاد كلما ارتفع شأن مصر على اثر انحلال الدولة العباسية لاشك أن عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلمز إلا أنه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة إلى الجار ميناء المدينة .

وأخيرا يجب التنبيه على أن ظهور الإسلام وان أدى إلى قيام دولة واحدة تشرف على طريقي الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلا أنه في الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة ، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار إحدى الدولتين بالأطمئنان إلى انشاء صلات مستديمة مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة ان انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الإسلام وبلاد المسيحية في أيدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خرداذبه بقوله :

« يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والافرنجية والاندلسية والصقلية وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباغ وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما (Pelusium) ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلمز ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلمز إلى الجار وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلمز ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم

(62) Leide, 1883-86

(63) المسالك والممالك 153 — 154 .

(64) المسالك والممالك 153 — 155 .

(65) الاخبار الطوال للدينوري ص 326 .

أرضه الزباد وخباء المسك وما يحصيه أحد لكثرة
خير» (66) .

هذا وقد جمع أحد من الشعراء الموالي اسمه
أبو الضنع (كذ) في معجم المرزبانسي 513 وفي
المفهرست 174 «أبو الصلح» (السندي كل ما
امتازت الهند به من وفرة الإنتاج واشتهرت به من
جودة الصناعات في آبيات رائعة في معرض المدح
والافتخار، قال :

لقد انكر أصحابي : وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهند وسهم الهند في المقتل
لعمري أنها أرض إذا القطر بها ينزل
يصير الدر والياقوت والدر لمن يعطل

فمنها المسك والكافور والعنبر والمندل
وأصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وانواع الأغاويه وجوز الطيب والسنبل
ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وان أتوتيا فيها كمثل الجبل الأطول
ومنها الببر والنمر ومنها الفيل والدغفل
ومنها الكرك والبيغاء والطاووس والجوزل
ومنها شجر الرانج والساسم والفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
وأرماع إذا ما هزت اهتز بها الجففل
فهل ينكر هذا الفضل إلا الرجل الأخطل ؟

الآثار للقرظيني ص 85 وانظر الحيوان 50/7 .

الألفاظ الهندية المعربة

بعد . وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الأول
لبضاعة من البضائع إذا اقترن بثبوت استيراد العرب
لتلك البضاعة منها (الهند) ينهض دليلاً قوياً . بل
قاطعاً . في كثير من الأحوال ، على أن الاسم هندي
الأصل كالبضاعة ذاتها . فمن الأمثلة المتفق عليها من
هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصندل والساج
والمسك والليمون والনারجيل وأسماء عدد من العقاقير
كالطريفل وجميع أصناف التوابل تقريباً كالفلفل ،
وسنرى أننا لو سرننا على هذه القاعدة لكان في
وسعنا أن نلقي بعض الضوء على أصول عدد من
الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من انغموض .

ولا يخفى أن لبحثنا هذا جانباً آخر على درجة
كبيرة من الأهمية وهو أن معظم تلك الكلمات التي
يقال عنها أنها عربية دخيلة في اللغات الأوربية ،
ولاسيما الإسبانية والفرنسية والانجليزية ، هي في
الأصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق أخرى
شرقي الهند ، وذلك لأن تلك الكلمات إنما شقت
طريقها إلى أوربا عن طريق التجارة على أيدي
العرب ، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في أي
من حقلَي الزراعة والصناعة لا لشيء إلا لان الطبيعة
حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية . إذن فكان

أن العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة
في القدم تتمثل في الأسماء الهندية المعربة أكثر منها
في إشارات أو روايات في بطون المجاميع الأدبية
والتاريخية أو المؤلفات الجغرافية ، وقد استحضرت
في ذهني عدداً من المفردات المتعلقة بالتجارة وما
اليها أتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها
ما يمكننا من ردها إلى أصلها الهندي العتيق ،
وأقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت إليها بشأن
أصل طائفة من الألفاظ المعربة ، والتي ربما اعتبر
بعضها عربياً محضاً .

ويهمني أن أتوه في هذا المقام بظاهرة ربما
يكفل إبرازها القضاء سلفاً على أي استفراب يلحق
القاريء فيما بعد ، وهي أن العرب الأول الذين
نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لبحج البحر
الهندي إنما دأبوا على ذلك ليحلبوا من الهند وما وراء
الهند لا البضائع فحسب بل أسماءها المحلية أيضاً
كما سمعوها من أفواه الذين اختلطوا بهم وعاملوهم ،
وسيدرو ذلك طبيعياً إذا نحن قدرنا أن معظم تلك
البضائع هي التي لم يعرفها العرب في أوطانهم وغير
أوطانهم من قبل ، بل إنما عرفوها لأول مرة في
الهند ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما

المصريين وبدأوا ينطقونها «المناخ»... (2) الحقيقة ان اصلها «رهمانج» عند ابن ماجد (69) وهو تحريف البحارين لكلمة «الراهنامج» التي جاء عنها في التاج 51/2 : «فارسية استعملها العرب واصلاها «راه تامه» ومعناه «كتاب الطريق»... وهو الكتاب الذي يسلك به الرابطة... في سفر البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها» كالشعب ونحو ذلك » .

صناعة السيوف وما اليها

(1) الآنسك : لقد اصاب ادى شير القول بانها قريبة من «Ranga» بالسنسكريتية (الفارسية : آهك) ، والرصاص الابيض معروف الى الآن في الهند بذلك الاسم ، وهو جزء من كلمة «الاسرنج» - اصلها ان يكون «h'sang» (70) الا «سرخ» + آنسك» كما اورده ادى شير)

اما معدن الرصاص فيقول عنه مسعر بن مهلهل (القرن الرابع الهجري) : « انها (كله) اول بلاد الهند مما يلي الصين ، وانها منتهى مسير المراكب : ولا يتهيأ لها ان تجاوزها والا غرقت ،

الاقدار حتمت عليهم ان يقوموا بدور الوسيط في جلب البضائع الهندية والصينية وتوصيلها الى اوربا الى ان قدر لاوربا الاتصال مباشرة بالشرق الاقصى في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو لعمرى دور لعبه العرب لا بجرأة وكفاءة فحسب بل بامانة تركت اطيب الاثر واعمقه في نفوس السكان غير المسلمين لمختلف مناطق الهند الساحلية . فهذه الظروف تقرر علينا . كلما وجدنا في اللغات الاوربية كلمة تتعلق بالملاحة (67) او التجارة على ايدي العرب في المحيط الهندي ، ان نواصل البحث عن اصلها الهندي بعد ان نهتدي الى شكلها المعرب في العربية ، ولعل في مقارنة الطرفين الاوربي والهندي ما يكشف لنا بعض ما غمض على المتأخرين من العرب انفسهم في بعض الاحيان .

فمثلا كلمة (Almanac) لم يشك احد في انها انتقلت الى اوربا عن العرب لكن حار الباحثون في الاهتداء الى اصلها فقالوا انه « المناخ » (محيط المحيط - ن و خ) او ان العرب الاندلسيين استعاروا كلمة

Ъ А Ъ ІХ ІЛЗІХЪ

(68) من

(67) لقد صرح السعودي : فيما يتعلق بالملاحة ، ان العرب حرصوا على الأخذ بالالفاظ المحلية في مختلف المناطق التي ترددوا عليها ، انظر الى قوله : « انما نعبّر بلفظة اهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم » المروج 332/1 (ايضا 343 : « انما نخبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه في خطابهم » .

ويلاحظ ايضا في هذا الصدد ان العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكريتية الفصيحة ، ولاهم اعتنوا بأشكالها الصحيحة في الكتابة ، بل انما أخذوها من افواه التجار وسكان المناطق الساحلية التي كانوا يترددون عليها ، ولا يخفى ان تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة .

Hob.-Job. - « Almanack » (68)

Ferrand : Instructions Natives, Tome I ص 60 « رهمانج » - 88 « رهمانجات » - 76 (69)

« رهمانجا » .

واللبس مثل الذي نشاهده في اول هذه الكلمة كثير شائع فيما يتعلق بالكلمات الاعجمية التي في اولها حروف تقارب الالف واللام . فكلمة « انجر » (Anchor) مثلا اصلها بالفارسية « لنكر » (القاموس - نجر) ، اضاف العرب عليها الالف واللام (ال لنكر) ، ثم التبس عليهم الامر فظنوا ان اللام ليست من الحروف الاصلية (النكر) وقالوا « انجر » - وكذلك الرصاص من « اريز » (انظر ادى شير) ، والماس من « Adamas » (Periplus) ص 224 وانظر بزرك ص 128 « الادماس ») بتمامه كلمة غير عربية والالف واللام من بنية الكلمة ، كذا في شفاء الفليل واللسان (ماس) عن ابن الاثير - وسيأتي الآنسك من « Ranga »

يلاحظ ايضا انهم كثيرا ما يحذفون الكاف والميم من الاول في التعريب ، انظر مثلا الرند = كرندة و « انباتي » نسبة الى كنيات و « انبجاني » نسبة الى « منبج » واترج / ترنجج تعريب « ما تلنفا » - وكذلك الواو يسقط من الاول مثل « النج » من « valgu » وارز من « virizi »

Watt (70) ص 707 .

وبها قلعة يضرب بها السيوف القلمية . وهي الهندية العتيقة لا تكون في سائر الدنيا الا في هذه القلعة . . وليس في جميع الدنيا معدن الرصاص القلمي الا في هذه القلعة « (71) .

فالنسبة في «السيوف القلمية» و «الرصاص القلمي» (الفرنسية : Alkalap الى هذه انعمه بـ (72) وقد شهد الادريسي ايضا بأنها المعدن الوحيد للرصاص الابيض بالنسبة الى العالم اجمع في زمانه ، فانه يقول :

« وبهذه الجزيرة (كله) معدن الرصاص القلمي . وهو بها كثير صافي الجوهر ، والتجار يفضونه بعد خروجه عنها ، ومنها يتجر (يجهز) به الى جميع الارض » (73) .

ثم يظهر ان مثل هذا المعدن نجم في الاندلس ايضا فيما بعد ، فبدأ التجار يتجولون عن الهند اليها ، حتى اذا مضى زمن خلط الناس بين المعدنين كما في قول ياقوت :

« القلعة فيما زعم مسعر بن المهلهل بلد في اول بلاد الهند من جهة الصين ، واليه ينسب الرصاص القلمي والسيوف القلمية ، واقليم القلعة من كورة قلبرة بالاندلس ، وانا اظن الرصاص القلمي منسوب اليها او الى قلعة بالاندلس فانه من هناك يجلب » (74) ان شهادة مسعر بن المهلهل والادريسي ليست موضع الشك ، وكل ما افادنا ياقوت هو ان الرصاص الابيض كان في ايامه يجلب من الاندلس بعد ان كان يجلب من القلعة بـ (كله من ذي قبل . ولعل في الاخذ باسم « القصدير » - الذي يرادف الانك الا انه معرب عن اليونانية - ايضا دلالة على التحول المشار اليه من الشرق الى الغرب .

ثم انه يرجح عندي ان المراد ليس « القلعة بـ (كله» بل كلمة « قلعة » هي تعريب « كله » لا غير ، والمعدن المسمى « كله » باللغة المحلية انما كان واقعا على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو ،

وقد ذهب الباحثون الى ان « كله » توازي « Kedah » او « Kra » الحالية (75) .

وبلاحظ ان اهم ما اشتهرت به سيوف الهند جودة الصقل ، وهو عمل لا يتأتى الا بالانك الذي استأثرت القلعة بانتاجه ، اما الحديد اللازم لصناعتها فقد اورد الادريسي بشأنه ما يلي :

« ان بلاد سفالة (سفالة الزنج أي شرق افريقيا) يوجد في جبالها معادن الحديد الجيد الكثيرة ، واهل الرانج (الزانج ؟) وغيرهم من ساكني الجزائر المطيفة لهم يدخلون اليهم ويخرجونه من عندهم الى سائر بلاد السند وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد ، لان بلاد السند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد ، ومع ذلك وان كان الحديد موجودا في بلاد الهند ومعادنه بها ففي بلاد سفالة هو اكثر واطيب وأرطب ، لكن الهنديين يحسنون صنعه وتركيب اخلاط الادوية التي يسبكون بها الحديد اللين فيعود هنديا منسوبيا الى الهند ، وبها ديار الضرب للسيوف وصناعتهم يجيدونها فضلا عن غيرهم من الامم ، وكذلك الحديد السبتي (كذا وفي نسخة اخرى: السندي) والسرنديبي والبينماني كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة واحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلء ، ولا يوجد شيء من الحديد امضى من الحديد الهندي ، وهذا شيء مشهور لا يقدر احد على انكار فضيلته » (76)

هذا وقد كانت البيلمان (البيلمان) مركزا آخر هاما لصناعة السيوف تنسب اليه السيوف البيلمانية ، وكانت تقع على ملتقى حدود السند والهند كما يتضح مما ورد في شأنها في فتوح البادان للبلاذري ص 440 و 442 ، اما القول بانه « يشبه ان يكون (البيلمان) من ارض اليمن » (انظر البلدان لياقوت و القاموس « ب ل م ») فلا يقوم على سند .

(71) القزويني 69 وياقوت « القلعة » و « الصين » .

(72) المغرب للجواليقي ، تحقيق احمد محمد شاكر - ص 276 .

(73) دار الكتب المصرية ، جغرافيا رقم 150 ص 130 .

(74) المشترك والمفترق 357 .

(75) انظر دائرة المعارف الاسلامية « Kalah » و « Kal'i » .

(76) ص 108 - 109 . قارن ابن الوردي ، القاهرة 1328 هـ ، ص 51 .

الرمح

تلك هي قصة السيوف التي لم تزل تحمل نسبتها الى انهد كسماز لجودة الصنعة وحسن الصقل ، ولنتقل الآن الى الحديث عن الرماح التي حوت نسبتها الى الهند على مر الزمان ، الا انه يمكننا اذا معنا النظر ان نستشفها من وراء كلمات لا تزال تحمل سمات الغرابة والغربة مع انها كثيرا ما عدت عربية لا لشيء الا لعدم الاهتداء الى اصلها .

يتكون الرمح من جزئين : الاول هو النصل أو السنان ، والثاني هو القنّاء . وغنى عن البيان أن صناعة السنان متجانسة مع صناعة السيوف بل هما صناعة واحدة ، وعلى هذا يصبح من الطبيعي أن يغيب الظن بأن العرب ربما استعملوا الأسلحة المصنوعة في الهند الا انه لا يعدنا من الدليل الإيجابي ما يرتفع بهذا الظن الى درجة اليقين ، فاننا نراهم يستعملون بعض الكلمات الهندية للتعبيرات الدقيقة المتعلقة بهذه الصناعة . انظر الى كلمة « الخرص » تبدو كأنها دخيلة على مادة « خ ر ص » العربية . فالخرص تعني الجزء الاعلى الذي فيه الحد من السنان ، وهي بهذا المعنى توازي كلمة « Kirch » بملالم (Malayalam) إحدى اللغات الدكنية - ولأردوية أيضا ، ولعل أصلها في لغة جاوة وملايو « Kris, Kiris, Kres » (77) - وربما اطلقت الكلمة على القضيبي والرمح نفسه كما قال حميد وابن ثور : « عض الثقاف أنخرص الخطيا » (78) ولا يخفى أن هذه النسبة الى الخط هي أقوى ما يؤيد الأصل الهندي للرمح المنسوبة اليها لان الخط لم تكن الا مرفأ لسفن الواردة من الهند كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

اما الجزء الثاني ، وهو بلا شك أهم الجزئين فقد كان العرب شديدي الاهتمام بالقنا والانتقاء لها حتى ان الشعر العربي يزخر بأوصافها ونوعاتها الا ان كثرة استعمال العرب للاسماء المختلفة للقنّاء وما يتبعها وجريها على سنتهم مجرى الكلمات العربية في الاشتقاق وما الى ذلك جعلنا اصل تلك الاسماء نسيا منسيا . هذا مع انه قد ثبت بصورة

Hob.-Job. - « Crease, Cris » (77)

(78) اللسان 8 / 287 .

Hob.-Job. - « Candy » (79)

فاطعة لا يتطرق اليها اي شك أن منبت القنا الذي كان العرب يعتمدون عليها لسد حاجتهم - وما أكثر تلك الحاجة - لم يكن غير الهند كما سنبين ذلك آنفا بعد ان نسوق بعض المقدمات ونتعرض لبعض الملابس التي لا بد منها نظرا الى غموض الموضوع .

أولا : القنا = قصب السكر . لا يخفى ان إطلاق القنا على هذا المعنى انما هو على سبيل التبعية والمجاز . وان كان ذلك مطابقا للمألوف في اللغة السنسكريتية وبعض اللغات الهندية الأخرى . وعلى كل حال فالمرجح عند العلماء هو ان موطن قصب السكر الاصلي لا يتجاوز ما بين بنغالة والهند الصينية (79) والدليل على ذلك ان جميع منتجات قصب السكر اشتهرت في العالم بأسمائها الهندية وهاكها فيما يلي :

1 - Candy = الفارسية والعربية « قند »
= سنس « Khanda » وملالم « Kandi » (79) .

2 - العربية « فانيد » = الفارسية « بانيد » =
سنس « Phanita » - فارن « Penidium » Med. Lat.
وقد ذكر ابن حوقل والبشاري الفانيد من أهم الصادرات من مدن السند: فنجبور ومولتان وطوران.

3 - Sugar = العربية « سكر » =
الفارسية « شكر » = البراكرتية « Sakkara »
/ سنس « Sarkara » .

ومن الطريف في هذا الضدد ان الهنود ، وان كانوا اول من قام بإنتاج السكر ، سرعان ما بدأوا يستوردونه من الصين ومن مصر ، وذلك لان الصينيين والعرب ، الذين نقلوا زراعة قصب السكر من الهند الى الصين والى مصر (ثم الى صقلية والاندلس) ، لم يلبثوا ان سبقوا الهنود في ابتكار وسائل جديدة للتكرير ، ففاق الصينيون في صنع سكر ناصع البياض بشكل قطع صغيرة ، كما ان المصريين اختلفوا بصنعه بشكل قطع كبيرة ، ولم تزل الهند تستورد ذبك الصنفين من السكر من

جدا في العصور الوسطى ، ومن المتفق عليه أن كلمة انطباشير انما هي منقولة عن سنس « Trakkshira » اي انها هندية الاصل (81) .
ثم ان الخيزران يصفه العرب انفسهم بأنه شجر هندي وهو عروق القنّاة (انظر الصحاح والتاج « خزر ») أفلا يكون القنّاء شجرا هنديا ؟ والخيزران الهندي (82) هو الذي يتمثل به في

الصين ومن مصر الى مطلع القرن الماضي حتى انهما يعرفان الى الآن في اسواق الهند باسم « صيني » و « مصري » على الترتيب (80) .
ثانيا : القنّاء بمعنى الرمح . يلاحظ في هذا الصدد ان هناك شيئا يشبه السكر كثيرا ما يتكون داخل القنّاء (Bamboo Sugar) يسمى عند العرب والفرس « الطباشير » وكان استعماله كدواء شائعا

(80) « Sugar » - Hobson-Jobson

ومما يشهد ببراعة المصريين في هذا المضمار القطعة التالية منقولة عن ماركو بولو (Ramusio II, 44) :

« And before this city » (a place near Fu-chau) « came under the great Can these people knew not how to make fine sugar ; they only used to boil and skim the juice, which when cold, left a black paste. But after they came under the Great Can some men of Babylonia » (i.e., of Cairo) « who happened to be at the court proceeded to this city and taught the people to refine the sugar with the ashes of certain trees » - 1298 A.D.

ومجلة « اللسان العربي » تلاحظ ما يلي :

كان السكر يصنع في شقي العروبة بافريقياسا : المغرب ومصر وقد حدثنا المقرئزي انه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصر القصب كما كان يعلوى عدة احجار (انخطط ج 1 ص 203) وكذلك في قابس وجولوا (البكري في المسالك جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) .

وقد أكد ماس لاطري Latrie ان المغرب كان يصدر السكر في القرن الثالث عشر الميلادي الى الفلاندر والبندقية (علائق وتجارة افريقيا الشمالية ص 376) وقد نبه الحسن بن محمد الوزان المعروف - Léon l'Africain على وجود السكر بسوس قبيل السعديين ولكن الشرفاء السعديين هم الذين جلبوا اساليب تصفية هذا السكر وتبييضه في معاصر ساهم الاسرى المسيحيون في تأسيسها باكادير وخاصة ، سكساوة وشيشاوة (مستندات دو كاستر ج 1 ص 303) .

ويوجد نص رسالة موجهة من مولاي محمد بن عبد الغالب - المسلوخ - عن اذن والده الى ملك فرنسا مؤرخة من قصر الدار البيضاء (فاس الجديد) في رجب 968 (مارس 1561 م) حول استعداد المغرب للسماح للملك شارل التاسع باحتكار سكر المغرب بشرط دفع ثمنه بالسعر المغربي مع زيادة نسبة في المائة وكذلك اصدار النحاس المغربي لفرنسا طبقا لرغبة ملكها بشرط دفع ثمنه سلاحا وعتادا (السلسلة الاولى - السعديون ج 3 ص 746) .

ولما عجز الاوربيون المعجوبون لعصر قصب السكر في معمل اكدال بمراكش وتصفيته واخراجه من القوة الى الفعل عن اتمام عملياتهم جلب محمد بن عبد الرحمن الصناع المهرة من مصر القاهرة (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 556) .

واسس مولاي الحسن عام 1878 مصنعا للسكر بمراكش وكلفه ذاك نفقات باهظة. ولكن هذا المصنع احيل بعد سنوات الى مدبغة للجلود (كامبو ص 59) .

وقد كان البلاطان الفرنسي والانجليزي يتنافسان في القرون الاخيرة على اقتناء السكر المغربي المكر لصفائه وجودته .

(المعجم التاريخي للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص 38) .

(81) « Tabasheer » - Hob.-Job.

(82) لقد عرف العرب أن بلاد الروم كانت تمتاز بمنابت الخيزران كما يقول النابغة الجعدي : « بلادهم بلاد الخيزران » (انظر اللسان - خزر) الا أنه من المحقق أنهم كانوا يجلبونه من الهند ويتمثلون بالهندي منه في شدة اللون . كذا في محيط المحيط - خزر . وقد أورد القزويني في الآثار ص 38 عن كله : « بها منابت الخيزران منها يحمل الى سائر البلاد » .

(x) وقد كان أهل Magan أي عمان يستوردون الاخشاب من نفس هذه المنطقة وذلك اربعة آلاف سنة قبل المسيح - انظر : Wilson : The Persian Gulf, p. 27

شدة اللين ومنه قولهم : الخيزرى والخوزرى
والخيزلى = مشية فيها تفكك .

وربما اقترن اسم القنا بالقسط ما عدا الخيزران
عند الربانة والجغرافيين العرب كما سنرى ،
ومن المسلم به ان القسط او الكسط هندي بحث
(سنس « Kustha ») وانما نسبوه فى بعض
الإحيان الى ظفار باليمن لانه كان يجلب اليه من
الهند ، القاموس « ظفر » .

ولنبحث الآن عن المواضع التى كان العرب
يترددون عليها لجلب القنا منها . نجد انها لا تتجاوز
ساحل السند والساحل الغربى والجنوبى لمنطقة
الدكن بالهند (*) : فهذا قول ابن خرداذبه 62 :
« ومن السند يجيء القسط والقنا والخيزران »
ويقول ايضا : « ومن مهران الى اوتكين وهى اول
أرض الهند مسيرة اربعة ايام ، وفى هذه الارض
ينبت القنا فى جبالها والزرع فى اوديتها واهلها
عتاة مرده لصوص » - كذلك يقول ابن الفقيه 251 :
« خص الله بلاد السند والهند ب... القنى
والخيزران ... » - وهذه شهادة مسعر بن مهامل
يقول : « وخرجت الى سواحل البحر الهندي
متياسرا فسرت الى بلد يعرف بمدورقين منابت
غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير
وذلك ان القنا اذا جف وهبت عليه الريح احتك
بعضه ببعض واشتدت فى الحرارة الحركة فانقذحت
منه نار فربما احترقت منه مسافة خمسين فرسخا
او اكثر من ذلك ، فالطباشير الذى يحمل الى
سائر الدنيا من ذلك القنا . فاما الطباشير الجيد
الذى يساوي مثقاله مائة مثقال او اكثر فهو شيء
يخرج من جوف القنا اذا هزت وهو عزيز جدا ... »
ثم يقول عن مدينة كولم ايضا : « والخيزران والقنا
بها كثير جدا » (انظر ياقوت « الصين ») . كذلك
يقول الادريسي : « ومدينة تانة (بالقرب من
بومباي) جايلة ... وبجبالها وارضها ينبت القنا
والطباشير يتخذ فيها من اصول القنا ومنها يحمل
الى سائر البلاد من المشارق والمغرب » - ص 297 .
وبعد ان تفقدنا منابت القنا وجب علينا ان نقتفي
آثار نواخذة العرب لئرى اين تفرغ سفنهم حملتها

وهاك ما يقوله ابن سيده (المخصص 34/6) عن
« الرماح الخطية » اشهر الرماح عند العرب : (الخط
مرقا السفن بالبحرين (*) ينسب اليها الرماح
وليست الخط بمنبت لها ولكنها مرقا السفن التى
تحمل القنا من الهند كما قالوا مسك دارين (*)
وليس هناك مسك ولكنها مرقا السفن التى تحمل
المسك من الهند) .

ترى كيف ان القناة المطلوبة من منابتها بالهند
والتي ركب عليها خرص او سنان مصنوع فى مصانع
السيوف حول معادن الرصاص القلعي بالهند ، كيف
ان هذه القناة هى التى تصبح « رمحا خطيا » بمجرد
دخولها حدود جزيرة العرب ؟

السهمري :

والحديث عن « الخطي » يذكرنا على الفور بـ
« السهمري » و « الرديني » . لو رجع احد الى
اللفويين واصحاب المعاجم لوجدهم يقولون ان
السهمري نسبة الى سمهر والرديني نسبة الى ردينة
وهما زوجان كانا يقومان ببيع الرماح بالخط ، ولكن
المتبع للشعر العربى والمتأمل فى اقوال اللفويين
 واصحاب المعاجم انفسهم لا يلبث ان يتبين ان
السهمري يفاير الرديني تماما من حيث الصفات
النسوبة الى كل منهما ، فالسهمري يمتاز بصفتين
هما : - 1 - الاعتدال ، - 2 - الصلابة ،
اما الرديني فيتميز بصد الصلابة وهو اللدونة لانه
هو الذى يهتز دون السهمري . وعلى هذا فيا له من
تحديد الاختصاص بحيث يمارس الزوج والزوجة بيع
رماح من نوعين مختلفين - ولعل المفروض انهما
كانا يتخذان محليهما جنبا الى جنب فى سوق
الخط - بدون ان يطفى الواحد منهما على الآخر !
ويا لها من مراعاة للمناسبات والصلاحيات بحيث
يكون بيع الرماح الصلبة من حصة الزوج وبيع
الرماح اللدنة من نصيب الزوجة !! وما يزيد اقوالهم
ارتباكا كما يزيدنا ارتيابا ان احدا منهم على الاقل
- وهو الزبير بن بكار - ذهب الى ان سمهر كانت
قرية بالحشة (انظر التاج حيث جاء ان الصاغاني
انكر هذا القول) كما ان بعضهم قال ان سمهر اسم
امراة كانت تقوم الرماح !!!

(*) ذكر Pliny اسم موضع Chateni يقع على سواحل الخليج هو الخط ولا شك ، (الدكتور
جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 309/2) .

(*) Daden/Dirin = البحرين او جزيرة بالقرب منها - (Heeren, II, 230)

كبير عناء بعد ان حططنا الاغلال التي كانت تقيّد فكرنا . كفانا ان ننظر الى كلمة « Rattan » بالانجليزية هي اسم لنوع معين من الخيزران غاية في المتانة والجودة وتمتاز قناته اكثر من اي شيء آخر بالمرونة واللدونة ، انظر « Rattan » - (Hob.-Job) ومما لا يشك فيه ان هذه الكلمة بالانجليزية منقولة عن « Rotan » بلغة ملايو والهند الشرقية . فهل يستبعد ان تكون (ردينة) الحلقة الوسطى بين « Rotan » من جهة و « Rattan » من جهة اخرى ليس الا ؟

القننا :

لقد آن لنا ان ندون بعض الملاحظات عن اصل كلمة «القننا» . اننا رأينا ان العرب ، مع كثرة وصفهم للرماح ، لم يذكروا اي منبت للقننا في ديارهم . بل بالعكس اجمعت الادلة كلها على انهم كانوا يعتمدون على منابت القننا بالهند ، ولا يفوتنا في هذا المقام ان نذكر ما أورده الجاحظ (البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون 16/3) من ان الشعوب طعنوا في العرب بقولهم : « انما كانت رماحك من مران واستنكم من قرون البقر . . . » - لعل مغزى هذا المطن لا يعدو ان العرب لم يجدوا في ديارهم ما يمكنهم من صنع الرماح بجزئها القننة والسنان - واخيرا يجب علينا ان لا نغفل اعتبار الاحوال الطبيعية اللازمة لنمو القننا وهي تنحصر في سفوح جبال تهطل عليها السماء مدارا ثلاثة أو اربعة أشهر متتالية في السنة . افيوجد مثل هذه الاحوال في جزيرة العرب او شرقيها وغربيها الا في السند والدكن اي الساحل الغربي والجنوبي للهند ؟ ويخيل الي ان قول الزبير بن بكار السالف الذكر (بان سمهر كانت قرية بالحيشة) يخفي وراءه حقيقة ثابتة وهي ان العرب في وقت من الاوقات اتخذوا من الحيشة بديلا من الهند ، مرجعهم الفضل ،

ان المهم في هذا كله هو ان الزوجين ، على حد تعبير اللغويين ، كانا يبيعان الرماح بالخط والخط ، كما رأينا آنفا ، لم تكن الا مرفا للسفن الواردة من الهند ، اذن فمن المؤكد ان السمهريات والردينيسات كانت رماحا هندية ، هذا بفض النظر عن من قام باعمال بيعها او توزيعها في الخط . افيستغرب بعد هذا ان يكون التجار العرب قد اخذوا اسمي الصنفين من الرماح - الصلب واللدن - من افواه التجار الهنود ؟ ان مثل هذا القياس يوافق مقتضى طبيعة المعاملات التجارية كما انه يصادف حرص العرب على تسمية الاشياء والبضائع التجارية باسمائها المحلية . فربما يكون سمهر اسما هنديا جابه العرب مع مسماه (اي الرماح الممتازة بالاعتدال والصلابة) الى الخط وطبعاً خفي امره على الناس لكونه غير عربي ، فلذلك لم يفقهوا غير انه انتشر بين العرب عن طريق ذلك المرفأ بالبحرين (83) .

ولعل القاريء الأريب يتبين في قول ياقوت الآتي تأييدا لجميع ما قدمنا آنفا . يقول ياقوت : « سمهر قرأت بخت أبي الفضل بن العباس بن علي الصولي المعروف بابن برد الخيار . . . قال حدثني سليمان المدائني قال حدثني الزبير بن بكار قال الرماح السمهرية نسبت الى قرية يقال لها سمهر بالحيشة . . . قلت انا وحدثني بعض من يوثق به ان هذه القرية في جزر من النيل (الأثار للقزويني ص 30 « جوف النيل ») يأتي من أرض الهند على رأس الماء كثيراً من القننا فيجمعه أهل هذه القرية ويستوقدون زواله ويبيعون جيده وهو معروف بأرض الحيشة مشهور - وقول من قال ان سمهر اسم امرأة كانت تقوم بعمل الرماح فانه كلف من القول وتخمين (**) » .

الرديني :

لكن انتفاء شخصية سمهر يستلزم أيضا عدم بقاء ردينة كرامة تخير في خطابها من يخلف في بيع الرماح الصلبة ، الا ان تلك مسألة لا تستدعي

(83) لم استطع الجزم بالاصل الهندي الا انه لفت نظري الكلمتان التاليتان المعبرتان عن الاعتدال والصلابة : SAMA, even, level... straight - Williams : Sanskrit-English Dictionary, p. 1066. KHARA, hard, harsh, rough... dense - Ibid., p. 74

(**) هذا ونجد مثالا آخر لهذه الاسطورة بالذات فيما يتعلق بكلمة « السندرة » (انظر ص 68 الآتية) وقد ادرك القتيبي ان القول « السندرة امرأة كانت تباع القمح وتوفي الكيل » مجازفة لجأ اليها الذين وقفوا حيارى امام كلمة اعجمية الفوا استعمالها وعرفوا مدلولها لكن لم يدروا ما اصلها .

أنت قوسا نعت ذي انتقاء
جاء بها جالس بروصاء
بعد اعتياد منه وانتصاء
كافية الطول على انتهاء
مجلوزة الأكمب في استواء
سألته من آسن السياء

(البيان والتبيين 93/3 - 94)

وانظر أيضا الى قول آخر للرقاشي في صفة
القناة التي تبرى منها القسي :

من شقق خضر بروصيات
صفر اللحاء وخوفيات
جدلن حتى اذن كالحيات
رشائقا غير مؤبنات
انفهن متمطرات
عمرو بن عصفور (85) على استنبات

(المصدر نفسه 71 / 3)

لا يخفى ان بروصا كما وردت الكلمة مضبوطة
في القطعة الثانية والتي جعلها الشاعر « بروصاء »
- « بروصاء » بالضاد المعجمة تحريف من الكاتب
ليس الا - في القطعة الاولى لضرورة الشعر - كانت
ميناء هامسا على ساحل كجرات فوق بمباي حاول
العرب عدة مرات ، قبل فتحهم للسند وابان حكمهم
لها ، الاستيلاء عليها (راجع فتوح البلدان للبلاذري)
وهي لا تزال مدينة معروفة باسمها القديم
« Bharoch »

والشريح بمعنى العود يشق منه قوسان (انظر
قول الشماخ : « شرائج النبع براها القواس »)
هي « chari » بالجيم علامة المعجمة بأخرها .
ومنه يقال لخطي نيري البرد شريحان .

ولا ننسى كيف ان ياقوت خلط بين كله (القلعة)
وبين معدن القصدير بالاندلس لاسباب متشابهة (*)
اذن اهل كلمة « قنا » نفسها معربة من
الهندية « ganna » البراكرتية « gandoo »
السنكرتية « gandaka » . (*)

الوشيج :

اذا كان « الخطي » هندية فهل من الغريب ان
يكون « الوشيج » - الذي لا يثبت الخطي الا هو -
هنديا ايضا ؛ ان اصل هذه الكلمة هو (Vansha)
والجيم في الآخر علامة المعجمة لا غير . وقد عهدنا
العرب دائما يظهرون مكة قوية للاحظة الطبيعة
بالدقة والاتقان وان كلمة الوشيج وما اشتق العرب
منها الا دليل على التثر بالطبيعة واستخلاص
المعاني العامة من مظاهرها فان كل من اتفق له ان
يتمتع بنظرة الى منبت القنا ليقدر تمام التقدير ان
اهم ما يروع المرء من اشجاره هو التفاف سيقانها
وتعانق اغصانها ، ومنه قولهم الوشيج بمعنى
القرباة ، والوشج بمعنى الاشتباك . واذا كان احد في
شك من هذا فليتنظر الى كلمة « البيش » (84)
لا ريب في انها هندية معربة اصلها (Visha/Bisa)
استخلص العرب من شجرته معنى الخضرة
والنضارة فقالوا « بيش الله وجهه » ولاحظوا ايضا
ان شجرة البيش شديدة الثبات والتأصل فقالوا
« اباش الشجرة » .

القسي

اما فيما يتعلق بالقسي ، فقد كفانا الجاحظ
مؤنة البحث عن اصلها بقوله : « وكل قوس بندق فانما
جيء بقناتها من بروص ومدح ببريها وصنعتها عصفور
القواس . وقال الرقاشي :

(*) انظر ص 34 السابقة .

(*) Nainar, S. Muhammad Husayn : Arab Geographers' Knowledge of Southern India, Madras, 1942, p. 193, note 29, vide Platts : Hindustani Dictionary.

(84) « البيش وهو نبت لا يوجد الا بالهند » كذا في الآثار للقزويني ص 85 .

(85) لو كان سمير مثقفا للرماع او يباعا لها لكان من الواجب ان نظفر من شاعر من الشعراء القدماء
باشارة صريحة الى ذلك مثل ما نجد امامنا بخصوص عمرو بن عصفور ، ولكننا بخلاف ذلك
نراهم ، حسبما اعرف ، دائما يذكرون « السميرية » و « الردينية » و « رماح ردينة » (الشماخ ،
ديوانه ص 98) من غير ان يزيدوا شيئا ثم يجيء اللغويون فيفسرون هذه النسبة كما بدا لهم
بدون أي سند على نحو ما فصلنا الكلام عنه .

الكلاب السلوقية

يذكر عند العرب ذكر الكلاب « السلوقية »
وعني على حد قولهم منسوبة الى ساوق قرية باليمن
الا انهم لا يستقرون على رأي بل يظهر انهم
يحيون حول (Sileucia) = سلقية التي يصفونها
بمدينة الروم (معجم البكري) ومدينة اللان ومدينة
بالشام (البندان لياقوت واللسان) . لكن الجدير
بالاهتمام تصريح القزويني بأن « الكلاب يسفدها
الذئب (86) فتأتي بالكلاب السلوقية » (الأتسار ص
29) . وذلك يذكرنا بمشاهدة الاسكندر بارض
الهند وبصحبة الملك (Saubhuti) لكلاب لا ترخي
قبضتها على الاسد حتى ولو قطعت ارجلها . قيل
انها من نتاج الكلاب من النمر (87) ، ثم نذكر ايضا
ان اهل بابل كانوا يستوردون الكلاب من الميناء
الهندي المعروف (Barygaza) = بروص (88) كما
نعرف ان الموكب التاريخي لبطليموس Philadelphus
كان حافلا بالكلاب الضواري الهندية الى جانب
النساء الهنديات وانتوايل الهندية ، وبعد هذا كله
نعثر على قول ابن رسته الآتي في معرض الكلام عن
ملوك الهند : -

« وبعدد ملك يقال له نجابه (8) وهو شريف
فيهم وبلهرا الملك يتزوج فيهم ، وهم السلوقيون ولا
يتزوجون الا فيهم لشرفهم وهذه الكلاب السلوقية
يقال انها وقعت من بلادهم ولهم الصندل الاحمر في
بلادهم وغياضهم . الخ » (89) .

وسفوة القول ان قصب الهند على العموم هي
التي كان بضرب بها المثل لما يقول الشاعر :

قصب الهند والقنا أخذانك

والمقادير في السورى اعوانك

الخويري 54/2 . وجاء في كنايات الجرجاني

63 ان الشاعر هندي .

القطن ومنسوجاته

لا شك ان الهند هي الموطن الاصلي لشجرة
القطن الا ان الشجرة الهندية الاصلية كانت طويلة
العمر كما يبدو من اقوال القدماء . اما الشجرة التي
تزرع سنويا فالملتون انها نتجت على ايدي العرب
في العراق وسوريا والبلاد المجاورة ، على كل حال
اقتربت هذه الشجرة بالعرب الى حد انها هي
والسكر والدين ربما اعتبرت المقومات الثلاثة لحضارتهم
في نظر الاوربيين (Watt, p. 569) هذا وقد
اشتهرت الهند منذ قديم الزمان بالجودة ودقة
منسوجاتها التي كان الثوب منها يدخل في حلقة
خاتم ، كما شهد بذلك سليمان التاجر (سلسلة
التواريخ ص 30) ، ويذكر ابن خرداذبه (ص 70)
ان الثياب القطنية المخمل كانت تجيء من الهند كما
ان « الشال » و « الشيت » و « القوطة » من
الاسماء الهندية المعربة .
وبالاضافة الى منسوجات القطن امتازت الهند
ايضا بصناعة الثياب من الحشيش ، ابن خرداذبه
ص (70) .

(86) من طرائق النساخ ان « الذئب » تحولت الى « الثعالب » حيث جاء في صبح الاعشى 42/2

تقلا عن المقر الشهابي ابن فضل الله ان السلوقية « مولدة بين الثعالب والكلاب » !!

Cam. Hist. of India, 1/407 (87)

Heeren, 2/207 (88)

(89) الاعلاق النفيسة ص 135 .